

بين الجمالي والأخلاقي في التراث البلاغي العربي:
"قراءة موضوعية في ضوء نظريات الإعجاز"

The Text and the Dialectic of the Aesthetic and the Ethical in Arab
Rhetorical Heritage: An Analytical Critical Approach in Light of the
"Theories of Miraculousness

جمعة حقاين *

جامعة باتنة 1

[djemaahagain@univ-batna.dz](mailto:djemaa.hagain@univ-batna.dz)

تاريخ القبول: 2025-12-27

تاريخ الإرسال: 2025- 10- 08

ملخص:

القرآن الكريم خطاب رباني أنزل بلسان عربي مبين، يتشكل من منظومة من الأبنية اللغوية، وهذه الأبنية يمكن مقاربتها علمية تكشف طبيعة العلاقات التي تربط بينها. وقد شكّل هذا الأمر الحلقة المفقودة في النقد والبلاغة العربيين قديماً، إذ إن الخطاب يُفهم باعتباره خطاباً نصياً متكاملاً، لا مجرد وحدات جزئية متفرقة كما تصوّره الأقدمون، وهو ما حال دون إدراكهم العميق لخصائصه الحقيقية. لذلك، فإن دراسة هذا الخطاب لا بد أن تستوفي شروط البحث العلمي لتتميز بالكفاءة في الاحتواء والقدرة على التمثيل. وإذا كان التعامل مع النصوص الأدبية العادية يتطلب مثل هذا الوعي المهني، فإن النص القرآني يكتسب خصوصية فريدة دفعت علماء الإعجاز إلى تأمله والبحث في أسرارهِ. ولا يختلف اثنان في أن هذه الدراسات أسهمت بعمق في تحريك المنظومة الفكرية العربية، وأحدثت أثراً بارزاً في تأسيس قاعدة نقدية وبلاغية هدفها الأول والأخير خدمة النص القرآني، وصولاً إلى صياغة رؤية نظرية عربية تنطلق من النص ذاته، وتطمح إلى نتائج أكثر وعياً وتفسيراً لنص موصوف مسبقاً بالإعجاز. وعليه تتمحور إشكالية الدراسة حول السؤال الآتي: إلى أي حد استطاعت البلاغة والنقد العربيان القديمان مقارنة القرآن بوصفه نصاً متكاملاً، وما مدى إسهام دراسات الإعجاز في تجاوز المقاربة الجزئية نحو وعي نصي شامل؟ يعالج نص المقال مجموعة من المحاور جاءت كالآتي:

*-المؤلف المراسل.

- مفهوم النص الأدبي وخصوصية النص القرآني.
 - دراسات الإعجاز وأثرها في بناء الوعي النصي.
 - آفاق بناء مقارنة نقدية عربية منطلقاً من النص القرآني.
- الكلمات المفتاحية: جمالي؛ أخلاقي؛ إعجاز؛ نظم؛ بلاغة.

Abstract:

The Qur'an is a literary text that is structured through a system of linguistic constructions, which in turn require a scientific approach to uncover the nature of the relationships connecting them. This aspect represented a missing link in classical Arabic criticism and rhetoric, as literature was understood merely as discrete, fragmented units rather than as an integrated textual discourse, which prevented scholars from fully grasping its true characteristics. Therefore, the study of such a text must meet the standards of scientific research to ensure comprehensive coverage and representational accuracy.

While dealing with ordinary literary texts necessitates such methodological awareness, the Qur'anic text possesses a unique specificity that compelled the scholars of I'jaz (inimitability) to contemplate it deeply and explore its secrets. There is unanimous agreement that these studies profoundly influenced the Arab intellectual system and played a prominent role in establishing a critical and rhetorical framework aimed primarily at serving the Qur'anic text, ultimately leading to the formulation of an Arab theoretical perspective that originates from the text itself and aspires to achieve a more conscious and interpretive understanding of a text traditionally described as miraculous.

Accordingly, the research problem of this study revolves around the following question: To what extent were classical Arabic rhetoric and criticism able to approach the Qur'an as an integrated text, and how did studies of I'jaz contribute to moving beyond a partial approach toward a comprehensive textual awareness?

The article addresses a set of key themes as follows:

- The concept of the literary text and the specificity of the Qur'anic text.
- Studies of I'jaz and their impact on building textual awareness.
- Prospects for developing an Arab critical approach originating from the Qur'anic text.

Keywords: Aesthetic: moral; miraculous; system; rhetoric.

مقدمة:

تندرج هذه الدراسة في إطار البحث في القيمة الجمالية للأدب كما تشكلت في خطاب علماء إعجاز القرآن، بوصفها أحد المرتكزات الأساسية التي أسهمت في بلورة النظرية البلاغية العربية، وربط الجمال الأدبي بالبنية اللغوية للنص، وبآليات صياغته وتنظيمه. فقد مثل النص القرآني منطلقاً معرفياً ومنهجياً لجهود العلماء في تفسير سرّ تفوّقه البياني،

الأمر الذي أفضى إلى تشكّل رؤية نقدية عميقة للجمال، لا تقوم على عنصر منفرد، بل على تآزر مكوّنات النص في كليّته.

وتكمن أهمية الموضوع في كونه يتصل بمبحث مركزي في التراث النقدي والبلاغي العربي، هو مبحث الإعجاز القرآني، الذي لم يقتصر على الدفاع عن قدسية النص، بل أسهم في تأسيس تصوّر متكامل للجمالية الأدبية ما تزال آثاره ممتدة في الدرس النقدي القديم والحديث. كما تكتسب الدراسة راهنتها من قدرتها على إعادة قراءة التصورات البلاغية التراثية في ضوء مفاهيم نقدية معاصرة، مثل الانزياح والشعرية وتفاعلية النص.

أما الخلفية النظرية للدراسة، فتستند أساساً إلى تصورات أعلام الإعجاز والبلاغة، وفي مقدمتهم الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني الذين جعلوا من النظم وطرائق التأليف اللغوي جوهر القيمة الجمالية وسرّ الإعجاز، مقابل النظرة التجزئية التي تعزل البلاغة في محسنات أو أساليب منفصلة. كما تستفيد الدراسة، على المستوى الإجرائي، من مقولات نقدية حديثة تتقاطع مع هذا التراث، خاصة ما يتصل بفكرة العدول والانزياح ودور المتلقي في إنتاج الدلالة.

ويتمثل نطاق الدراسة في تحليل المفهوم الجمالي كما تجلّى في الخطاب البلاغي الإعجازي، مع التركيز على النص القرآني بوصفه النموذج الأعلى للتعبير، دون الخوض في التطبيق التفصيلي على نصوص أدبية مغايرة، إلا في حدود ما تقتضيه المقارنة النظرية. وتهدف هذه الدراسة إلى:

- الكشف عن الأسس الجمالية التي بنى عليها علماء الإعجاز تصوراتهم للنص الأدبي.
- إبراز مركزية اللغة والنظم في تشكيل القيمة الجمالية.
- بيان أوجه التقاطع بين البلاغة التراثية وبعض مفاهيم النقد الحديث.
- إعادة الاعتبار للدرس البلاغي بوصفه خطاباً جمالياً، لا مجرد علم تقعيدي.
- وانطلاقاً من ذلك، تطرح الدراسة إشكالية رئيسة مفادها:
- كيف تشكّلت القيمة الجمالية للأدب في خطاب علماء الإعجاز القرآني، وما الأسس اللغوية والبلاغية التي اعتمدها في بنائها؟

وتفترض الدراسة أن القيمة الجمالية عند علماء الإعجاز ليست معطًى شكلياً أو بلاغياً جزئياً، بل هي نتيجة بنية لغوية كلية، يتحقق فيها المعنى من خلال النظم، والعدول، وتفاعل المتلقي مع النص.

أما المنهج المتبع في هذه الدراسة، فهو منهج وصفي تحليلي، يستند إلى قراءة نصوص التراث البلاغي قراءة تفسيرية نقدية، مع الإفادة من المنهج المقارن عند الضرورة، للكشف عن نقاط الالتقاء والاختلاف بين التصور البلاغي التراثي والمقاربات النقدية الحديثة.

1- النص بين الجمالية الفنية والأخلاقية:

لقد شكّلت النظرة التي ركّزت على الجانب البلاغي من جهة، وعلى علاقته بالنحو من جهة أخرى – كما نجد عند عبد القاهر الجرجاني – منطلقاً لحدوث نقلة نوعية في التصور الجمالي للإبداع الأدبي، وفي كيفية تلقيه وفهمه. فالتركيز على مفهوم النظم أسهم في تجاوز النظرة الجزئية للبلاغة، التي حصرت الجمال في اللفظة المفردة والكلمة المعزولة، ومهد الطريق لظهور رؤية كلية تنظر إلى النص كبنية متكاملة، قوامها التأليف والانسجام الداخلي.

غير أن هذه الرؤية الجمالية لم تنفصل عند علماء الإعجاز عن بعد آخر، هو البعد الأخلاقي. فتصورهم للأدب قام على مزج ما هو فني بما هو قيمي، وهو أمر طبيعي في سياقهم المعرفي؛ إذ لا يمكن الحديث عن وعي جمالي من غير مقاييس ضابطة، ولا وجود لهذه المقاييس خارج أفق المثل العليا، سواء أكانت فنية أم أخلاقية. ومن هنا جاء ارتباط هذا التصور بالقرآن الكريم، الذي جسّد التلازم بين البعد الجمالي والبعد الأخلاقي.

فالجانب الجمالي في النص القرآني يتجلى في بنائه الفني، وإيقاعه، وصوره البيانية، بقدر ما يتجلى أيضاً في منظومته القيمية التي يرفعها ويدعو إليها. ومن ثم تطرح العلاقة بين الأخلاق والجمال سؤالاً جوهرياً: هل تُعد الأخلاق جزءاً من الجمال في تلقي النص؟ وبعبارة أخرى: هل يمكن اعتبار القيم الأخلاقية قيماً جمالية هي الأخرى، أم أن المجالين يظلان متميزين؟

وقد توزعت قديماً آراء الفلاسفة والمفكرين والمشتغلين بالفنون، بين موقفين رئيسين، الأول يربط بين الأخلاق والجمال على أساس علو الأخلاق فوق الجمال، أما الموقف

الثاني فيفصل بين الجمال والأخلاق، وبالنسبة للمواقف الوسيطة، فإنها إما تميل إلى هذا الجانب أو ذاك¹.

لقد بدأ التفسير الأخلاقي للفن في وقت مبكر جداً، يكاد يواكب نشأته الأولى، وذلك من خلال اقترانه بالدين في الحضارات القديمة كالصين ومصر وإسبرطة واليونان وغيرها. فقد طُرحت آنذاك فكرة أن الخير الجمالي مرتبط بالخير الأخلاقي، وأن الفن في جوهره محاكاة لفعل أخلاقي أو تعبير عن مضامين ذات طابع تربوي وإرشادي. وعلى هذا الأساس عُدَّ الفن تعبيراً عن الانفعال الجمالي الذي يشمل الجميل والجليل وحتى القبيح، غير أن المعيار في تقويم هذا التعبير ينبغي أن ينبع من داخل العمل الفني ذاته، لا أن يُقاس بمعايير خارجية كالدين أو الأخلاق. ومع ذلك، فإن هذا التصور لم يمنع الاعتراف بدور الفن الأخلاقي في الحياة الإنسانية.

وقد انقسمت المواقف من هذه المسألة إلى اتجاهين رئيسين:

الاتجاه الأول: subordinate الجمال للأخلاق، بحيث يجعل القيمة الجمالية أدنى مرتبة من القيمة الأخلاقية، بل ويرى أنها لا تتحقق إلا بها. وبناءً عليه فإن للفن وظيفة أخلاقية أساسية، ومن دونها يفقد الفن جوهره ومرتكزه.

الاتجاه الثاني: ظهرت إرهاصاته منذ القدم، لكنه تبلور بوضوح مع الدراسات الحديثة، خاصة مع شيوع نظرية "الفن للفن". وقد تعرض هذا الاتجاه لانتقادات شديدة، لكنه وجد سنداً نظرياً قوياً في المناهج البنوية التي سعت إلى ترسيخ الفصل بين الجمال والأخلاق، مؤكدةً أن الحكم الجمالي حكم خاص، منزه عن الأغراض النفعية أو الاعتبارات الذاتية والاجتماعية أو حتى الأخلاقية².

أما إذا انتقلنا إلى وجهة النظر الإسلامية في مسألة ارتباط الجمالي بالأخلاقي، فإننا نجد لهذا الموضوع حضوراً بارزاً وفاعلاً في تراثنا النقدي العربي، ولا سيما في الدراسات الإعجازية التي جعلت منه إحدى أولوياتها في بحث إعجاز النص القرآني. وليس هذا بالأمر الغريب،

¹ ينظر: رمضان الصباغ، العلاقة بين الجمال والأخلاق في مجال الفن، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع36، ص18.

² ينظر: إبراهيم نبيلة، البنوية من أين وإلى أين، مجلة فصول، مج1، ع2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، يناير، 1981، ص168.

فالخطاب القرآني في ظهوره الأول جاء أساساً لتبليغ رسالة سماوية للعالمين، رسالة مشبعة بالقيم الأخلاقية والإرشادية في المقام الأول.

فالقرآن لا يقتصر على الإمتاع الجمالي، بل يهدف إلى صياغة حياة جديدة، تجعل الوجود البشري مرتبطاً بوازع أخلاقي ديني يوجّهه وينظم مسيرته ويضمن استمراره. وأما بالنسبة للأدب فوظيفته في جوهرها وظيفة أخلاقية، تنطوي ضمناً على قيم جمالية أصيلة متجذرة فيها، حيث يتداخل البعد الفني مع البعد الأخلاقي في وحدة متكاملة. فالأدب -كما تراه هذه الرؤية- رسالة هادفة، وعلى المبدع أن يسهم بفكره وقلمه في نشر الفضيلة والدعوة إلى القيم الرفيعة، ليشترك في عملية بناء المجتمع الفاضل الذي ينشده القرآن. وبهذا يصبح الإبداع المنشود في التصور الإسلامي إبداعاً ذا بعد إنساني، يتجاوز حدود المتعة الجمالية العابرة إلى غاية أسمى هي بناء الإنسان الصالح والمجتمع القويم.

وإذا أردنا أن نلخص نظرة مؤلفي كتب الإعجاز إلى وظيفة الأدب -الأخلاقية منها والجمالية- فإنها لا تنفصل عن إطارها التاريخي والفكري. فقد كان الفكر العربي آنذاك يعيش تحولات عميقة شملت مختلف مجالات الحياة: العقلية والسياسية والأدبية والفكرية. وجاء القرآن الكريم ليحدث ثورة شاملة على العقلية الجاهلية، مقدماً بدائل قيمة جديدة، ومصححاً الرؤية الجمالية الملتبسة لدى العرب قبل الإسلام، وذلك من خلال بناء قيم ومبادئ تستهدف تشييد مجتمع أفضل وأسمى. مجتمع لا تحده الحدود ولا تحكمه الأزمان، ممتد بامتداد النص القرآني نفسه، المنفتح على كل عصر وزمان عبر لغة لا تفتى ولا تموت، تحمل في جوهرها القيم السامية والأخلاق الفاضلة. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾³، ولا شك أن الأخلاق الفاضلة والمثل السامية تمثلان جوهر الأعمال الصالحة وجوهرها.

وعليه، فإن الأدب -في نظر علماء الإعجاز- لا ينفصل في معناه العام عن غاية نشر الفضيلة وإشاعة القيم الأخلاقية الرفيعة، بل يُنظر إليه بوصفه أداة فاعلة في بناء الفرد والمجتمع على أسس متينة. وهذا ما نجده صريحاً عند الخطابي، الذي شدد على المعاني الكامنة في النص القرآني، والتي كان لها أثر بالغ في بلورة فكرة إعجازه، إذ امتزج فيه البعد الجمالي بالبعد الأخلاقي ليكونا معاً أفقه القيمي والوظيفي، «... توحيد له عزت قدرته وتنزيه

³ سورة الإسراء، الآية 9.

له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته، من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها⁴.

وكما هو مبين، فإن هذه القيم المعنوية والأخلاقية التي استوقفها الخطابي من خلال قراءته للنص القرآني، تصب جميعها في إطار الوظيفة الأخلاقية التي ينبغي أن تطبع الأدب تلك الوظيفة التي يتعين على كل خطاب أدبي أن ينهض بها خدمة للإنسانية وصوناً لمكارمها.

2- إشكالية الصدق والكذب /الشعور بالانتماء الأخلاقي:

يأتي عبد القاهر الجرجاني ليؤكد بدوره أن المعاني التي يزخر بها النص القرآني تتصف بـ العفة والصحة، وتمتاز -في الوقت نفسه- بكونها منسجمة مع العقل ومتوافقة مع الأخلاق، الأمر الذي يجعلها سامية في غاياتها، راسخة في أصولها، ومؤسّسة لمقاصد الشريعة وأحكامها؛ لأنها من «أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين»⁵.

وإثارة موضوع الجمالية الأخلاقية في الأدب تقودنا بالضرورة إلى إشكالية لطالما شغلت الفكر النقدي العربي، وهي قضية "الصدق والكذب في الأدب والفن". فهذه الإشكالية ارتبطت على نحو وثيق بمفهوم أخلاقية الأدب، من حيث مدى التزام النصوص الأدبية بقول الحقيقة أو مجانبتها. وقد فصل في ذلك الدكتور عبد العزيز حمودة في مراحله، حيث تناول بالتحليل كيفية حضور هذه القضية في التراث النقدي، وما يترتب عليها من أبعاد جمالية وأخلاقية. «إن قضية الصدق والكذب مظلة عريضة واسعة، تندرج تحتها كل القضايا الخاصة بعلاقة الأدب بالغايات العملية والأخلاقية»⁶. ورغم أن الدكتور عبد العزيز حمودة يفيد فكرة اتخاذ قضية "الصدق والكذب" معياراً للحكم على جمالية الأدب، باعتبار أن القيمة الفنية لا تقاس بمدى التطابق مع الواقع أو بصدق الخبر، فإنّه في المقابل يعرض مجموعة من المضامين التي تُعزّز فكرة الارتباط الوثيق بين الأخلاقي والجمالي. فحتى وإن لم

⁴ الخطابي، بيان إعجاز القرآني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، محمد زغلول، دار المعارف، مصر، ط 2، 1967، ص 27، 28.

⁵ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5، 2004، ص 42.

⁶ حمودة عبد العزيز، المراهق المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة، ع 272، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1990، ص 417.

يكن الصدق معيارًا جماليًا بذاته، إلا أنَّ حضور البعد الأخلاقي في النص الأدبي -بما يحمله من قيم ومعاني- يظل عاملاً مؤثرًا في عملية التذوق والتلقي، ومن ثَمَّ في بناء الحكم الجمالي عليه.

وعليه، فإن البلاغة العربية قد اتخذت موقفًا واضحًا من قضية الصدق والكذب بمعناها الواسع، فتوقفت عند أبعادها الأخلاقية والدينية أكثر من توقفها عند بعدها الفني الخالص. فعندما نتحدث عن الصدق والكذب في النقد العربي القديم، فإننا نتحدث بالأساس عن حضور هذه القضية في النص الشعري، الذي ارتبط بها ارتباطاً وثيقاً حتى كاد أن يصبح جوهره. ولهذا كان من الطبيعي، بل من المنطقي، أن يُربط الشعر في صدر الإسلام بمعيار الصدق الديني والأخلاقي، بما يتماشى مع الرسالة الجديدة التي جاءت لتؤسس لنظام قيمي متكامل.

ومع ذلك، فإننا إذا عدنا إلى الحقبة المبكرة لظهور الإسلام، وحتى أواخر القرن الثاني الهجري تقريبًا، نجد أن المبادئ النقدية التي توافرت آنذاك -رغم قلتها- كانت تحمل صفة التوثيق، لكنها في مجملها تركز على بعض المبادئ الإسلامية من عقيدة وأخلاق، وهو ما يعكس مدى تداخل البعد الجمالي بالبعد الأخلاقي في تلك الفترة التأسيسية.⁷

ومع بداية العصر الذهبي للبلاغة العربية، بدأت تتسرّب إلى الساحة الفكرية والنقدية العربية أفكار جديدة، فرضها الاحتكاك المتزايد بالثقافة اليونانية، وبخاصة بفكر أرسطو حول طبيعة المحاكاة ووظيفة الشعر. وقد أسفر هذا التفاعل عن بروز موقف نقدي جديد إزاء العلاقة بين الأخلاق والجمال في الفن، موقف يمكن وصفه بأنه مذهب وسطي، يوازن بين القيم الدينية والأخلاقية من جهة، وبين الحرية الجمالية المطلقة من جهة أخرى.

فقد سلّم النقد العربي، في هذا الطور، زمام الاختيار إلى الشاعر، ليحدد بنفسه مادة شعره ومعانيه، دون أن يفرض عليه معيار يحدد ما يصلح أو لا يصلح أن يكون موضوعًا للشعر. فكل المعاني، بما في ذلك المعاني الأخلاقية، يمكن أن تكون مادة للشعر، لكن الأهم هو الطريقة التي تُقدّم بها هذه المعاني داخل النص، أي بوصفها معاني شعرية، تُقاس قيمتها

⁷ حسنين أحمد طاهر ، حول روافد النقد الأدبي عند العرب، نظرة تحليل وتأصيل، مجلة فصول، مج6، ع1، مصر، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، 1985، ص12.

من داخل التجربة الفنية ذاتها، لا من خارجها. «فالقصيد قصيدة وليست موعظة أخلاقية تخضع لمعايير الصدق والكذب»⁸.

وهذا يعيدنا -في جانب منه- إلى دفاع شيخ البلاغة، الجاحظ، عن الشعر في مواجهة الاتهامات التي وجهها إليه بعض معاصريه، ممن ربطوا بين الشعر وبين الكذب أو الانحراف الأخلاقي.⁹ ففي معرض رده على هذه التهم، يقرر الجاحظ أن وظيفة الشعر ليست أن يكون سجلاً للصدق الواقعي أو الأخلاقي، بل أن يحقق غايته في التصوير الفني والإمتاع الجمالي. ومن ثم، فإن ما قد يرد فيه من مبالغات أو تخييل لا يُعدّ كذباً بالمعنى الأخلاقي، وإنما هو أسلوب فني مشروع، تُقاس قيمته من داخل شروط العمل الشعري ذاته. «أن يكون رفضه له وذمه إياه من أجل ما يجده فيه من هزل وسخف، وهجاء وسب وكذب باطل على الجملة... وأن يذمه، لأنه موزون مقفى، ويرى هذا بمجرد عيبا يقتضي الزهد فيه والتزهد عنه»¹⁰.

فالجرجاني يرى أن الهزل والسخف والكذب الباطل ليست صفات مقصورة على الشعر، فهي موجودة في النثر كما هي موجودة في الشعر، مع فارق جوهري، وهو أن منثور كلام الناس -على كل حال- أكثر من منظومه. ثم يقرر أن وظيفة الشعر أسمى من أن تُختزل في مجرد غنائيته أو زخرفته اللفظي، بل هي من أجل التعبير عن المعاني في صورتها الفنية الأرقى، وإبراز طاقة اللغة في نظمها وتآلفها، بحيث يغدو الشعر وعاءً للفكر والوجدان معاً، لا مجرد ترفٍ بياني أو انفعال عابر. وبهذا يضع الجرجاني الشعر في إطار جمالي مستقل، لا يُحكم بمقياس الصدق والكذب الأخلاقي فحسب، وإنما بمقياس قدرته على إنتاج الدلالة الجمالية، وإثارة المتلقي فنياً وفكرياً، بل هي من أجل «اللفظ الجزل، والقول الفصل والمنطق الحسن، والكلام البين، وإلى حسن التمثيل والاستعارة، وإلى التلويح والإشارة وإلى صنعة تعتمد إلى المعنى الخسيس فتشرفه وإلى الضئيل فتفخمه وإلى النازل فترفعه، وإلى الخامل فتنوه به، وإلى العاطل فتحليه، وإلى المشكل فتجليه»¹¹؛ بل يجعل عبد القاهر الجرجاني النص الشعري وسيلة لإدراك الإعجاز البياني للقرآن، والتماس جمالياته؛

⁸ حمودة عبد العزيز، المرايا المقعرة، ص 424.

⁹ المرجع السابق، ص 425.

¹⁰ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 65.

¹¹ الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، تح: هريتر، مكتبة المتنبي، بغداد، 1997، ص 126.

إذ يرى أن الشعر نموذج عملي يكشف عن أسرار النظم، وكيفية انتظام المعاني في تراكيب تؤلف بينها علاقات دقيقة، تُظهر أثر التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والربط والفصل، في توليد المعنى الجمالي. ومن خلال هذا الوعي، يوضح عبد القاهر أن إعجاز القرآن لا يرجع إلى مفرداته المفردة أو إلى معانيه وحدها، بل إلى طريقة النظم التي جمعت بين الشكل والمضمون في انسجام بديع، وهو ما يجعل النص القرآني في ذروة البيان، ومصدراً لإعادة النظر في طبيعة التعبير الأدبي كله.

« وذلك أنا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وباتت وبهرت، هي أنه كان على حدّ من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك، إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لاشك أنه كان ميدان القوم، إذا تجاوزوا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيها قصب الرهان، ثم بحث العلل التي بها كان التباين في الفضل وزاد بعض الشعر على بعض، كان الصاد عن ذلك صاداً عن أن تعرف حجة الله تعالى»¹³.

أما شكري عياد فيرى أن الفلاسفة وأصحاب العقائد قد انقسموا إلى اتجاهين: أحدهما يخضع الأدب للعلم والأخلاق، والآخر يزعم أنّ الأدب هو الذي يؤسس للعلم والأخلاق. غير أن الشعراء أنفسهم، ومعهم النقاد الذين انشغلوا بالأدب، قلّما نظروا إلى الفن الأدبي من زاويته العلمية أو الخلقية، بل تعاملوا معه باعتباره مجالاً جمالياً خالصاً. ويستشهد عياد على ذلك بقول البحري:

كَلَفْتُمُونَا حَدُودَ مَنْطِقِكُمْ فِي الشَّعْرِ يُغْنِي عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُهُ
وَلَمْ يَكُنْ ذُو الْقُرُوحِ يَلْهَجُ بِالْمَنْطِقِ مَا نَوْعُهُ وَمَا سَبَبُهُ¹⁴

هذا القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، يرد على بعض نقاد المتنبّي الذين أخذوا عليه معانيه أو نسبوا إليه ما ليس من محاسن الشعر، قائلاً إن قيمة الشعر لا تُقاس بصدق أخباره أو مطابقة معانيه للواقع، بل بجمال نظمته وحسن تصويره، وبما يحدثه في النفس من أثر وإمتاع. فالمعيار عنده هو البلاغة والفن، لا مجرد الصدق التاريخي أو الواقعي، وبهذا يؤكد الجرجاني أن وظيفة الشعر أوسع من أن تُقيد بالمعيار الأخلاقي وحده.

¹² الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 7.

¹³ الطائي أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخي، ديوان البحري، تج: حسن كامل الصيرفي، مج: 1، ط3، دار المعارف، مصر، 2009، ص 214.

«والعجب ممن ينتقص أبا الطيب ويغض من شعره لأبيات تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة... فلو كانت الديانة عارا على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشعر، لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، أو من تشهد الأمة عليه بالكفر... ولكن الأمر متباين والدين بمعزل عن الشعر»¹⁴.

ووفق هذا الطرح، يقدّم القاضي الجرجاني فكرة "أدبية الأدب"، وهي الفكرة التي تقوم على أن قيمة الأدب لا تُقاس بمعايير خارجية عنه، كالمعيار الأخلاقي أو التاريخي، وإنما من داخله، أي من خلال خصائصه الفنية وجمالياته الخاصة. وهذه الرؤية، على حداثتها في زمنه، توازي ما تدور حوله أبرز النظريات النقدية المعاصرة التي حصرت الأدب داخل فضائه الذاتي، وجعلت غايته البحث عن الجميل حتى في صميم القبيح نفسه.

3- التخيل وصناعة الأثر الجمالي:

يندرج هذا المبدأ (السابق الذكر) ضمن أحد أهم العناصر المميزة للظاهرة الأدبية في شقها الجمالي، وهو "التخيل"، الذي يرى فيه عبد العزيز حمودة أساساً لخصوصية الخطاب الأدبي وتميّزه عن غيره، فيقول: «استنتت البلاغة العربية لنفسها قبل أرسطو، وبعيدا عن تأثيره وبعد أن كانت الممارسة الشعرية قد سبقتها إلى ذلك، المبدأ الجمالي القديم/ الحديث الذي يقوم على التخيل»¹⁵.

والمبدأ الجمالي الذي يقوم عليه "التخيل" يقوم أساساً على القدرة على إيجاد الجمال حيث لا يُرى جمال، وإيجاد القبح حيث لا يُرى قبح؛ فهو العنصر الذي يبدّل المواقع، فيجعل من الجميل قبيحاً، ومن القبيح جميلاً، وفق ما يقتضيه النسج البلاغي والفني. ومن هنا كتب عبد القاهر الجرجاني مؤكداً على دور التخيل في صناعة الأثر الجمالي للنص، قائلاً إن قوة الكلام لا تكمن في المعنى وحده، بل في الصورة التي يُصاغ بها هذا المعنى، وفي ما يحدثه من تأثير في نفس المتلقي عبر التشبيه والاستعارة والمجاز وسائر أدوات البيان. «كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور، ويشكله من البدع، ويوقعه في النفوس من المعاني يتوهم بها الجامد الصامت، في صورة العي الناطق، والموات الأخرس، في قضية

¹⁴ الجرجاني علي عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تج: محمد أبو الفضل وعلي بجاوي، دار القلم، بيروت، ص 49-50.

¹⁵ حمودة عبد العزيز، المرايا المقعرة، ص 441.

الفصيح المعرب، والمبين المميز، والمعدوم المفقود في حكم المشاهد... حتى يكسب الديني رفعة، والغامض القدر نباهة»¹⁶.

وهكذا نلاحظ أن العالمين البلاغيين، القاضي الجرجاني وعبد القاهر الجرجاني، قد منحا في درسهما النقدي والبلاغي مساحة معتبرة من الحرية للمبدع في بناء نصه الأدبي، وفسحا المجال في الوقت ذاته أمام المتلقي ليمارس بدوره حريته في استقبال النص وتأويله. فالنص عندهما ليس مغلقاً على معنى واحد، بل هو مجال للتعدد الدلالي والتفاعل الجمالي، مما يتيح للقارئ أن يقرأه بالكيفية التي يراها ملائمة. وفي هذا السياق يقول عبد القاهر الجرجاني: «ثم إنك لو لم ترو من هذا روايته، وفي المحاضرة به، وفي نسخه وتدوينه، لكان في ذلك غنى ومندوحة، لوجدت طلبتك ونلت مرادك، وحصل لك ما نحن ندعوك إليه في علم الفصاحة فاختر لنفسك ودع ما تكره إلى ما تحب»¹⁷.

فالجملته الأخيرة للجرجاني نلمح فيها توجيهاً مباشراً للخطاب نحو القارئ، إذ يخاطبه بصيغة الأمر داعياً إياه إلى ممارسة فعل الاختيار الحر للنصوص المقروءة، مهما كان نوعها أو جنسها الأدبي، بحيث تصبح مسؤولية تحديد القيمة والدلالة في النهاية مسؤولية المتلقي نفسه.

وحتى لا نقف عند جانب واحد في علاقة الجمالي بالأخلاقي، يمكن أن نستشهد برأي ثانٍ يختلف في طرحه عن الأول، وإن كان المنطلق في الحالتين واحداً، وهو البحث عن جمالية النص في ارتباطها بغاياته الأخلاقية. فكما أن ثمة من ينظر إلى النص الأدبي بوصفه قيمة فنية خالصة لا شأن لها بالأبعاد الأخلاقية المباشرة، فإن هناك من يربط الفن بالقيمة الأخلاقية ربطاً وثيقاً، كما يشير الدكتور جابر عصفور في تعليقه على ثنائية "النافع والضار"، حيث يقول: «النافع في الفن لابد أن يكون نافعا في الحياة، لأنه لا يمكن أن يتعارض النافع في الفن مع النافع في الحياة، مادامت غاية الفن تعين على تحقيق غاية الحياة... النافع في الحياة شبيهه بالنافع في الفن، كلاهما أشبه بوجهي العملة لشيء واحد متصل بغاية الإنسان وسعيه وراء الكمال»¹⁸.

¹⁶ الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص 275، 276.

¹⁷ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 9-10.

¹⁸ جابر عصفور، مفهوم الشعر "دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 5، 1995، ص 208.

والكمال هنا يشير إلى معنى تجاوز كل ما قد يمسّ الفن من حيث قيمته الخلقية، إذ يرى جابر عصفور أن القيمة الأخلاقية تسهم في تحقيق القيمة الفنية، فيلتقي بذلك مع مفهوم حازم القرطاجني حول طبيعة الشعر وآرائه في قضيتي الجمال والقبح. غير أن القرطاجني يركّز بالأساس على "الصدق الفني"، لا على الصدق الأخلاقي الذي لا يرتبط بالضرورة بالصدق الفني، فالعمل الأدبي قد يكون صادقاً فنياً حتى وإن لم يتقيد بالصدق الأخلاقي. ومن هنا يقول حازم القرطاجني: « فأفضل الشعر ما حسنت محاكاته وهيئته وقويت شهرته أو صدقه أو خفي كذبه، وقامت غرابته، وإن كان قد يعد حذقا للشاعر اقتداره على تروج الكذب وتمويهه على النفس، وإعجالها إلى التأثر له قبل إعمالها الروية كما هو عليه، فهذا يرجع إلى الشاعر وشدة تخيله في إيقاع الدهشة للنفس، في الكلام، فأما أن يكون ذلك بشيء يرجع إلى ذات الكلام فلا»¹⁹.

فهو يربط بين براعة الشاعر وقدرته على تروج الكذب وتمويهه على النفس، وبين قوة تأثير الشعر في النفوس التي تتحدد بمدى قوة التخيل وما يصاحبه من إيقاع يخدع الحسّ ويأسر الوجدان. ومن هنا يتضح أن موقف حازم القرطاجني من قضية الصدق والكذب، في ارتباطها بالغايات الأخلاقية للأدب، يمكن اعتباره موقفاً وسطاً؛ إذ لا يطالب الشعر بأن يكون موعظة أخلاقية أو خطاباً دينياً مباشراً، لكنه في المقابل يرسم حدوداً أخلاقية لا ينبغي للفن أن يتجاوزها.

وعليه، تصبح القيمة الأخلاقية مصاحبة للقيمة الجمالية وغير منفصلة عنها، لأنّ الجميل في جوهره خير، ولأنّ الأفعال الجميلة تظل قرينة الفضائل متى ما ارتبطت بالكيفية التي تعين الإنسان على بلوغ أرقى مراتب السلوك القويم. ومن ثمّ، فلا غضاضة في أن يندرج الشعر ضمن إطار قيمي وأخلاقي يوجّه غاياته، بحيث تتكامل الحكمة مع الشريعة في تشكيل ملامح تجربة أدبية تحقق في أن معاً متعة الفن وسمو الأخلاق.²⁰

الخاتمة:

إن النقلة من الحديث عن إعجاز النص القرآني إلى بلاغة النص الشعري تمر عبر الجسر ذاته: اللغة. فاللغة العربية ربما تكون اللغة الوحيدة التي ارتبطت فيها ضبط الدلالة

¹⁹ القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، نج: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، 1981، ص 77.

²⁰ ينظر: جابر عصفور، مفهوم الشعر، ص 208.

والبحث في ثنائية اللفظ والمعنى بوازع ديني، الأمر الذي جعل القيمة الأخلاقية دائماً معياراً أساساً عند النظر في القيمة الجمالية للنص العربي. ومن ثم، فإن إعادة قراءة التراث البلاغي العربي من منظور حديث ليست ترفاً أكاديمياً، بل ضرورة لفهم هذا التراث أولاً، ثم لفهم الإمكانيات الفنية الكامنة في اللغة العربية ذاتها، خاصة في زمن أصبحت فيه الدراسات الجمالية هي الحقل الوسيط بين البحث اللغوي والنقد الأدبي، تماماً كما كانت الحال في البلاغة العربية القديمة التي سعت إلى تحديد الوظيفة الجمالية للغة من خلال دراسة القرآن الكريم والنصوص الأدبية المختلفة شعراً ونثراً.

لقد أسهم القرآن الكريم، بما يحمله من مفاهيم نقدية وأحكام جمالية، في نشوء حركة نقدية عربية خالصة في أصلها، وإن انفتحت في بعض جوانبها على الفكر الأرسطي والأفلاطوني في مفاهيم كالمحاكاة والتخييل. غير أن القرينة العربية استطاعت أن تزواج بين هذين المنبعين، وتضع نظرية نقدية ذات ملامح عربية واضحة، تقوم على الجمع بين الغايات الجمالية والأخلاقية للعمل الأدبي.

وإذا كان مشروع القراءة الحديثة ينطلق من فلسفة الحوار والتساؤل، فإنه يفند الزعم القائل بإمكانية استعادة الماضي من الحاضر استعادة آلية، إذ العلاقة بينهما علاقة جدلية تجعل من التاريخ وعياً حياً متجدداً. ومن هنا، فإن النظرة الثانية للنقد القديم التي تبناها نقادنا المحدثون تمثل وجهاً من وجوه فاعلية النقد العربي القديم في حاضرننا، حيث يلتقي الماضي والحاضر في جدل مستمر، يفتح أفقاً جديداً لمفهوم النقد.

غير أن تركيز الدرس النقدي القديم في كثير من الأحيان على الكلمة أو الجملة، دون النفاذ إلى النصوص الكاملة، حال دون بلوغ تحليل النصوص عمقها الكلي. ومع ذلك، فإن هذا لا يقلل من قيمة نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، ولا من مكانتها العلمية التي جمعت بين البلاغة والنحو والصوتيات وغيرها، لتضع بين أيدينا عُدّة منهجية فريدة يمكن عبرها الدخول إلى عالم النص من بوابته الكبرى: النحو. ففاعلية النظام النحوي في خلق المعنى وتعدده تمثل ركيزة من ركائز حيوية اللغة وقدرتها على أداء وظائفها، وهو ما وعاه المتقدمون وحاولوا ترسيخه في الوعي النقدي، متخذين القرآن الكريم نموذجاً ومثالاً أعلى لهذه الفاعلية.

اقتراحات وتوصيات:

انطلاقًا مما انتهت إليه هذه الدراسة، يمكن تقديم جملة من التوصيات والاقتراحات التي تسهم في توسيع البحث واستثمار التراث البلاغي العربي:

1. إعادة قراءة التراث البلاغي قراءة شاملة، مع التركيز على النصوص بوصفها وحدات متكاملة، وتجاوز الانحياز للتحليل الجزئي للكلمة أو الجملة، بما يسمح بفهم أعمق للقيمة الجمالية للنص العربي.
 2. تفعيل نظرية النظم الجرجانية والمنهجيات المرتبطة بها في الدراسات النقدية الحديثة، لتمكين الباحثين من تحليل البنية اللغوية والنحوية للنصوص، وربطها بالوظيفة الجمالية والدلالية.
 3. استكشاف أثر الإعجاز القرآني على الشعر والنثر العربي، من خلال دراسات مقارنة، للكشف عن أوجه انتقال الخصائص الجمالية والبلاغية من النص القرآني إلى الإنتاج الأدبي العربي لاحقًا.
 4. إعادة الاعتبار للعلاقة بين القيم الأخلاقية والجمالية في النص العربي، باعتبارها وحدة متكاملة، وهو ما يساعد في صياغة نقد عربي متوازن بين حرية التعبير والإبداع والمسؤولية القيمية للنص.
 5. دمج مباحث البلاغة والنظم في المناهج الأكاديمية بصيغة تحليلية تطبيقية، تمكن الطلبة والباحثين من ممارسة القراءة النقدية الواعية للنصوص، وفهم الوظائف الجمالية والبلاغية للغة.
 6. فتح حوار بين النقد العربي القديم والحديث، لاستثمار مفاهيم كلا المدرستين في تطوير أدوات تحليلية حديثة، تحافظ على أصالة التراث، وتواكب التحولات المعاصرة في الدراسات الأدبية والجمالية.
- بهذه المقاربة، يصبح التراث البلاغي العربي ليس مجرد مادة تاريخية تحفظ، بل أداة فاعلة في فهم النصوص وتحليلها، ومصدرًا غنيًا للإبداع النقدي والفني في سياق البحث الأكاديمي المعاصر.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

- 1- أحمد طاهر حسنين، حول روافد النقد الأدبي عند العرب، نظرة تحليل وتأصيل، مجلة فصول، مج6، ع1، مصر، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، 1985.

- 2- الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد سقر، دار المعارف، القاهرة، ط 5.
- 3- جابر عصفور، مفهوم الشعر "دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 5، 1995.
- 4- الجرجاني الحسن علي بن عبد العزيز أبو الحسن، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل وعلي بجاوي، دار القلم، بيروت.
- 5- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، تح: هريتر، مكتبة المتنبي، بغداد، 1997.
- 6- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 5، 2004.
- 7- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، 1981.
- 8- الحلاق محمد راتب، الإجراء النقدي في كتاب النص والممانعة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 314.
- 9- حمودة عبد العزيز ، المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة، ع 272، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1990.
- 10- الخطابي، بيان إعجاز القرآني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، محمد زغلول ، دار المعارف، مصر، ط 2، 1967.
- 11- رمضان الصباغ، العلاقة بين الجمال والأخلاق في مجال الفن، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع 36.
- 12- الطائي أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخي، ديوان البحري، دار المعارف، مصر، 2009.

13- عياد شكري، مقدمة في أصول النقد، دار اليابس، القاهرة، 1986.

14- نبيلة إبراهيم، البنيوية من أين وإلى أين، مجلة فصول، مج 1، ع 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، يناير، 1981.